من العربية الخاصة «النصرانية»

مستفادة من «المجدل»

في الكتابين الموسومين بـ «أخبار بطاركة كرسي المشرق»

الأول لعمرو بن متّى والثاني لماري بن سليمان

من مطبوعات رومة (الفاتيكان) القديمة

وأعاد نشرهما قاسم محمد الرجب صاحب مكتبة المثنى ببغداد

هذان الكتابان النصرانيان مما كتب وألف منذ أكثر من سبعة قرون، وقراءتهما مفيدة من الناحية الدينية للنصاري عامة، كما أن فيهما فائدة تاريخية للمعنيين بتاريخ النصرانية في ديار المشرق.

وقراءة ما في هذين السفرين المفيدين للمعنى بالعربية وتاريخها فوائد جليلة، منها: كيف كانت هذه العربية الخاصة لدى النصارى في عهود الدولة الإسلامية؟ إن العربية في هذين الكتابين نمط غريب يلتقي فيها اللون العامي باللون الفصيح، فيأتي من هذا اللقاء، أو قل من مجموع هذا الاختلاط، لغة فصيحة عامية، لا يمكن أن تندرج إلا في عداد الألسن الدارجة الخاصة. ثم إنها موسومة بسمة خاصة لا نجدها في غيرها من الألسن الدارجة؛ تلك هي سمة النصرانية، وما أمدّتها من كلم جديد مُعرَّب، أو قل مُنَصرٌ، أصله كلمات أفرنجية كما سنرى. وهذه اللغة العربية العامية الخاصة قد عرفت طائفة من الكلم النصراني الشرقي، وهو الكلم السرياني.

ولنعرض لنماذج من هذه العربية فنقول:

سأضع بين يدي القاريء نموذجين، أولهما من كتاب عمرو بن متّى، وثانيهما من كتاب ماري بن سليمان.

جاء في كتاب عمرو بن متّى ص١٢:

شحلوفا:

هذا الأب كان شيخاً مفروق اللحية، حكيماً عالماً ماهراً، من أهل كشكر، مقدما في أهل زمانه، عارفا بالأمور، حافظا للعلوم، وكان فيه لطفاً (كذا) عجيباً... ماهراً في الخطب... وكان أسقفاً، وظهر منه رغبة في عمارة البيع، وتعهد الـمساكين، وتفقد الأسكوليين، فاختير للفطركة....، فاجتمع الآباء وعقدوا له الاسيامنذ ببيعة الـمدائن، وهو لابس بيرون أخضر، ورعي غنم الـمسيح أحسن رعاية، ودبر الأمور أشد تدبير، وفي أيامه أسيم أغناطيوس تلميذ يوحنا الإنجيلي فطركاً على أنطاكية، وهو الذي رأى الملايكة (كذا) يشمسون كدين، أعني يصلون صفين.

واستناح هذا الأب الطاهر في السنة الرابعة من ملك شابوربن ادرشير، سنة خمسة وخمسين وخمسماية يونانية..

أقول:

في هذه الترجمة الدينية النصرانية لحبر من أحبارهم نقرأ عربية خاصة ليس فيها شي من العربية المعروفة في زمن الـمؤلف، الذي عاش في القرن الرابع عشر الـميلادي أي الثامن الهجري.

هي عربية ينطلق بها اللسان سحابة يومه، فلا عناية فيها بالكلمة ولا الجملة. وقد تتنكر لقوانين العربية في نحوها وصرفها، ثم أن فيها من الكلم الدخيل النصراني، مما هو سرياني أو هو من لغات أعجمية غربية، شيئاً واضحاً.

إنك تجد فيها «الأسكوليين» أي الدارسين أصحاب المدارس الدينية، كما تجد الأسيامنذ وهو مجمع الرؤساء الدينيين الكبار لبيعة أحدهم أو تقليده بمنصب ديني مثلاً.

دع عنك كلمة الفطرك والفطركة، وقف على قوله «أسيم» أي «سُمّي» وقوله «استنام» بمعنى «توفى». وهذه من غير شك من أصل آرامي قديم.

وقوله: «يشمسون كُدّين» التي شرحها الـمنصف فقال أعني يصلّون صفّيْن.

إن جملة هذه الأشتات وغيرها مما تجاوز فيها الـمؤلف نظام العربية نحواً، ليحملني على أن أدرج هذه اللغة في حيز الألسن الدارجة التاريخية في العربية القديمة.

ومن الـمفيد أن نقف على نص آخر من كتاب ماري بن سليمان، فنختار من غير قصد ما ورد في الصفحة ٨٢:

يرحنا بن نرسي:

ذكرنا الله بصلواته، وقدّسَ روحه، من أهل الكرخ، وكان أسقفاً على الأنبار، وبعد موت أنوش وقع في قلب عبدون بن مخلد وسلمة بن سعيد اجلاسه (كذا)، وكانا مقيمين بسرّ من رأى ومتمكنين من السلطان، واختارا أن يكون الاجتماع للاختيار عندهما. فاجتمع الآباء بالمطيرة، وكان في عمر الكرسي راهبٍ فاضل نسيب عبدون، فاختاره قوم بسبب، وكتب اسميهما وغيرهما في بنادق بيض وعُمِل السهر (كذا). ومع الفراغ من الرازين حضر الآباء ورؤوس الـمؤمنين، فخرج اسم يوحنا، وأُسيم الأحد الثالث من قدّاس البيعة سنة إحدى وسبعين ومائتين للعرب، وقرأ الإنجيل يوم الأسياميد جبريلِ مطران البصرة، وتكلم فأحسن، وكان قيوماً مطران نصيبين الـمقترش قائماً في جملة القُسان، وازدحم الناس عند دخوله من البيم إلى الـمذبح، حتي انهدم بعض الحايطين الـمبنية (كذا) مكان الديرانيات، ووقع علي فخذ بعض الـمؤمنين فكسره.

واغتَمّ الجاثليق وسائر الناس وابتدا بالأمانة، وأخذ الجاثليق كأساً وجعل فيه حناناً وماءً ورسم ذلك به، فقام على رجليه وتضاعفت مسرّةُ الناس، وباكر سحراً دير التابوت للتجلّي على رسمه وعاد وعمل الرازين، وأحضر ثلاثة ليسميهم، أحدهم من كشكر، فقال له حنانيشوع أسقف كشكر: أن أحدهم لا يصلح أن يُسام، ففطن الجاثليق وقال: أظنه من كرسيّك.

أقول: نقف في هذا النص على جملة فوائد تؤلف في مجموعها ما يصبغ على هذه المادة صفة كونها أدباً عامياً، ينطلق فيه صاحبه على سجيته في لغة يومه. نقرأ فيه كلمة «اجلاسه» ويراد بها ما نريد بـ «جلسة» في لغتنا الـمعاصرة. والعمر من بيوت النصارى كالدير في العربية القديمة، ولم يبق له شيء في الوجود في عصرنا.

وقوله: «نسيب عبدون» من اللغة الـمحكية، فليس النسيب باللغة العالية كالصهر، وهو الباقي في الدارجة الـمعاصرة.

وقوله: «وعمل السهر» أي أنهم سهروا في اجتماع لشيء ما.

و«الرازين» من الكلم النصراني الديني، ومن هذا الكلم النصراني «البيم» لـموضع في الكنيسة أو الدير، وكذلك «الـمذبح». وأنت تجد الفعل «أسيم» كما وجدناه في النص السابق، بمعنى سمّي. ومثل هذا «استنام» بمعنى توفي.

قلت: ومادة النص في جملتها عربية عامية ذات صلة بالفصيحة، تقدم لنا فوائد تاريخية جليلة.

ومن سمات هذه العامية القديمة ـ كما أشرنا ـ تجاوز النحو في الـمرفوع والـمنصوب. وفي طوقنا أن نحصي من ذلك عشرات النماذج بل أكثر من ذلك. ثم تجاوز الصرف فقد «أعمد» بمعنى «عمّد» من «الـمعمودية».

ومن ذلك قولهم:

وأقرّ لـماري بالإلاهة وأراد الألوهية. (ص٥ ماري بن سليمان) وقولهم: وكان عالـماً صالحاً مشفياً (كذا) للمرضي. (ص ٧ ماري بن سليمان) والصواب: شافياً.

وأصعد إلى بغداد من غير أن يمضي إلى دير مار ماري على الرسم، فتطير الناس من ذلك، ونزل دير الجاثليق، واجتمع الناس للقيال، وسألوا في أمر قيوما مطران نصيبين، ووعد. ثم ورد يوانيس مطران الـموصل لأنه لم يحضر بل إنه كان كتب خطه بالرضى، وكان بينه وبين الجاثليق مودة وقرابة، وقام (كذا) عنده مدة، وسأله في باب قيوما، وتلطف وجماعة الأماثل فحلّه وفَرّجَ عنه (كذا).

وهُدِمَ دير الجاثليق دفعتين في أيامه، واتصلت الفتن، وبني دفعتين وهُدم، وبعد الجاثليق إلى أيام الـمعتضد وعاد وبني الدير ولم يطب نفساً بالمقام فيه، وسكن في دار الروم في بيعة أصبغ العبادي.

وأسام سابور الراهب من عَمر الزيتون بالرقة كرهاً علي جند يسابور، وقال الوقت قصر، واستنام ليلة الـميلاد لليلتين خلتا من شوال سنة تسع وسبعين وماتين (كذا) للهجرة وصُلّي عليه، ذكرنا الله بصلواته ورزقنا شفاعته وبركاته.

وعند ادارته بَصَقَ عليه رجل مسلم لهواً (كذا) فسقط من وقته، وعمل له من حضر من الآباء اشيفتا وطرحوه ملقى على التابوت وبريء واستغفر وقال: رأيت يداً خرجت ولطمتني، وخرجت وأقامتني. ودُفن إلى جانب الـمذبح الصغير في بيعة أصبغ..

وقوله: ... متعاهد للمساكين والأسكولات (ص٧ ماري بن سليمان).

وقوله: ... وفي أيامه بدأ يكتب الاقلاسيطيقات (ص ٨ ماري بن سليمان) والأسكولات جمع أسكول وهو معروف وقد كنا أشرنا إليه.

والاقلاسيطيقات هي الأدبيات التي تتصل بالكنيسة ورسومها وطقوسها وهي تعريب (Ecelesiastique).

وتقرأ في الكتاب ص٩ : وقرروا ما هو مسطوراً (كذا).

وكذلك: يفعل الجرائح بمعني يقوم بجراحة الـمريض.

ومن هذا الشيء الكثير الذي لا حصر.

وبعد فهذه المواد اللغوية في هذه النماذج العربية النصرانية ذات قيمة في إفادة من يتصدي لتاريخ هذه اللغة العريقة.

ومن الـمفيد أن نعرض لطائفة ألفاظ النصرانية مما ورد في الـمصادر العربية، ومن ذلك ما ورد منها في كتاب «الديارات» للشابشتي، وقصيدة أبي القاسم مدرك بن محمد الشيبانى، التي وردت في جملة من كتب التاريخ والأدب.